وتتابعت رحلات الكثير من الاوروبيين الى بلاد الشرق وأثبتوا صدق الكثير من أخبار ماركو بولو ومشاهداته، وتطلعت أنظار الأوروبيين إلى ثروة بلاد الشرق الاقصى حيث توجد ثروة لا تنفذ، وعقدوا العزم على الحصول على شطر منها لأنفسهم، كما كانت روح المغامرة والكسب المادي والثراء دافعاً آخر للكشوف الاستعمارية.

٧- تقدم فنون الملاحة

نقل الأوربيون عن العرب بعض الآلات الخاصة عن الملاحة مما سهل لهم القيام بكشوفهم الجغرافية، وتم ذلك في مطلع القرن الرابع عشر حيث قام البنادقة ببناء طراز جديد من السفن يجمع بين السرعة وعدم التعرض للأخطار البحرية وهو الطراز الذي استخدم في الكشوف البرتغالية والإسبانية.

ثانياً: الكشوف البرتغالية

كانت دولة البرتغال أول دولة بحرية قامت بسلسة من المغامرات التي انتهت بكشف مواقع وبلاد جديدة، وساعدها على ذلك أن توفرت لها الأدوات البحرية من علم وخبرة وسفن متطورة، وبالإضافة إلى الانتفاع باختراع البوصلة البحرية والتعمق في إدراك حركات الكواكب والنجوم واخترف الأجواء والاعتقاد بكروية الأرض وزيادة الاهتمام بعلم الجغرافية. ويمكننا أن نقسم الكشوف البرتغالية إلى ثلاثة ادوار رئيسية على النحو التالي:

الدور الاول ١٤١٥-١٤٩٧

☒ الأمير هنري الملاح Henry the Navigateur

ترتبط حركة الكشف الجغرافي والتوسع البرتغالي بالأمير هنري الملاح (١٣٩٤-١٤٦٠) ابن يوحنا (جون) الأول ملك البرتغال الذي أجلى العرب عن بلاده وأتم استغلالها. وكان هنري متديناً شديد التعصب، اهتم منذ صباه بالدراسات الجغرافية والفلكية فكان يجمع الخرائط الجغرافية ويدرسها دراسة دقيقة ويدرس الأجرام السماوية والطرق البحرية وحركة الرياح التي تساعد على الملاحة التي كانت معروفة في تلك الأيام وهي الملاحة الشراعية، وعن عناية شديدة بالعمل على تطور بناء السفن تطوراً يساعد الملاحين على الاطمئنان عند الإبحار إلى المحيطات والتوغل فيها.

اشترك هنري منذ صباه في عدة مغامرات حربية ضد بلاد المغرب في شمال أفريقيا بحجة القضاء على القرصنة في شمال أفريقيا، ولما نجح في الاستيلاء على مدينة سبته Cebta عام ١٤١٥ على الشاطئ الشمالي الأفريقي تجاه جبل طارق عينه أبوه حاكماً عليها، وحاول هنري التقدم نحو طنجة للاستيلاء عليها وانتزاعها من المجاهدين المغاربة إلا انه فشل في احتلالها فحول جهوده نحو الشواطئ المراكشية على المحيط الاطلسي وتم له اخضاع أفريقيا الشمالية الغربية من نهر السنغال إلى غانا حيث صعب عليه التوسع عبر الطريق البري داخل القارة نظراً لسيطرة العرب عليه؛ ولذلك فكر في الوصول إليها بحراً عن طريق كشف الشواطء الأفريقية المؤدية إليها.

وفي عهد هنري بدأت الكشوف الجغرافية البرتغالية الأولى، فقد نجح في ارتياد جانب كبير من المحيط الأطلسي وبدأ باكتشاف بعض الجزر في ذلك المحيط وهي جزر مادريا Madeiras عام ١٤١٩ التي وجدها خالية من السكان، ولاحظ خصوبة أرضها واعتدال مناخها فعمل على تشجيع الاستيطان بها وأدخل بها زراعة قصب السكر والكروم فنجحت نجاحاً عظيماً وأصبحت مركزاً لإنتاج السكر.

واكتشف هنري أيضاً جزر أزوره Azoresعام ١٤٣٢، وكناري Canary. وفي عام ١٤٣٤ اكتشف رأس بوجادور Bogador ورأس بلانكو عام ١٤٤١، وتحقق له هدف آخر وهو مواصلة ارتياد الساحل الغربي لأفريقيا وذلك عندما واصلت بعوثه جهودها وتحقيق في عام ١٤٤١ للبرتغال الاتصال الحقيقي بالبقاع الأفريقية واستغلوا الاراضي الغنية بغاباتها. وفي عام ١٤٤٦ وصلوا إلى مصب نهر السنغال، ثم وصلوا الى الرأس الاخضر وبذلك حقق هنري غرضه في الوصول الى بلاد غانا، وخبر ملاحوه تلك الجهات وبدأت تجارة رابحة بينها وبين البرتغاليين، وانطلق التجار والملاحون البرتغاليون يقتنصون أهالي هذه البلاد وينقلونهم إلى أسواق أوروبا لبيعهم عبيداً وحققوا من هذه التجارة الآدمية المحرمة أرباحاً خيالية مما اغرى الكثير من التجار والمغامرين بالقيام برحلات متعاقبة إلى الشواطئ الغربية لأفريقيا والتي لقيت ترحيباً وتشجيعاً كبيرين من الأمير هنري الملاح طوال حياته، وذلك دون مراعاة لأبسط حقوق الإنسان التي كفلتها له الأديان السماوية.

وقبل وفاة هنري الملاح عام ١٤٦٠ كان قد رسم خرائط لساحل السنغال وغمبيا؛ وبذلك استطاع أن يرتاد نحو ثلث الساحل الافريقي الغربي وأقام عليه نقاطاً حصينة اتخذها البرتغاليون مراكز حربية وتجارية لهم. وهكذا اصبحت البرتغال بفضل جهوده رائدة الدول الاوروبية في الكشوف الجغرافية، بل كونت البرتغال اول امبراطورية في العالم الأوروبي الحديث وبعث روح جديدة جريئة في امته انتقلت منها إلى غيرها من الأمم الأوروبية فكان لها اعظم النتائج.

ولما كانت تجارة بلاد غانا تشكل مصدر ربح وفير للبرتغال وتمثل مواردا لخزانة الحكومة فقد استمرت الكشوف الأفريقية بعد هنري وأخذت تتقدم رويداً رويداً، فقام الملك يوحنا (جون) الثاني في عام ١٤٦٢ بإرسال بعثة بحرية إلى ساحل ليبيريا، ثم وصل البرتغاليون إلى ساحل الذهب ونيجيريا والكمون ووصلوا إلى مصب نهر الكنغو وأصبحوا يحتكرون الملاحة على الساحل الأفريقي الغربي بحيث لم يسمح لبحارة الدول الأخرى بالملاحة هناك إلا بتصريح خاص تمنحه حكومة البرتغال. وفي عام ١٤٧٥ عبر الملاحون خط الاستواء دون ان تسود وجوههم أو تغتالهم الوحوش او تلفح وجوههم ويشوى اجسادهم اللهب المحترق.

وتعطلت جهود البرتغاليين في الكشف الجغرافي بسبب قيام الحرب بين إسبانيا والبرتغال بين عامي ١٣٧٥-١٤٧٩ وبسبب الاضطرابات الداخلية التي أوقفت الحملات الكشفية عدة سنين. وفي تلك الفترة أخذت روح الاستكشافات تحل محل روح التعصب الديني، وبدأ البرتغاليون يفكرون في كشف طريق بحري إلى الهند حول الطرف الجنوبي لأفريقيا. ففي عام ١٤٨٤ وصل ديجو كام Digo Cam إلى مصب نهر الكنغو.

وساعد على نجاح البرتغاليين أنهم استعانوا بالمعلومات الملاحية التي عرفها العرب وسبقوا بها الاوروبيين عدة قرون فقد كان الملاحون العرب قد عرفوا المرشدات الملاحية والخرائط البحرية منذ القرن العاشر الميلادي، واتخذوا من تجاربهم الشخصية الواقعية اساساً للجغرافيا الملاحية إذ كان لهم نشاط ملاحي في أرجاء المحيط الهندي وارخبيل الملايو وبحر الصين فضلا عن البحر المتوسط والبحر الأحمر وأجزاء من المحيط الأطلسي تطل عليها سواحل الأندلس وشمال غرب افريقيا.

وسعى البرتغاليون قبيل قيامهم بالمغامرات الكشفية للحصول على علوم العرب الملاحية واستعانوا في ذلك بالتجار اليهود في الاندلس الذين قاموا بدور التجسس، وقد قاموا برحلات بين الشرق والغرب براً وبحراً لهذا الغرض وتظاهروا بأنهم مسلمون. وانطلق هؤلاء الجواسيس في سائر الدول الحربية ومن بينها مصر. ففي عام ١٤٨٨ قام عدد من الجواسيس اليهود متخفين في زي تجار برتغاليين

بالسفر سراً إلى مصر وكان على رأسهم الفونسو دلي بافيا Alfonso Dle Pavia وبيرو دلي كوفيلهام Pero Dle Covilham واستطاع هؤلاء الجواسيس الحصول على معلومات مهمة عن كل ما يتصل بتجارة التوابل والبضائع الشرقية، وأقلعوا من السويس إلى عدن على سفن عربية واستقلوا سفينة أخرى متظاهرين بالإسلام. وسافروا إلى الهند قبل وصول فاسكو دي جاما إليها بنحو عشر سنوات وحملوا معهم المعلومات المطلوبة واتجهوا إلى مصر في طريق عودتهم إلى البرتغال.

وفي القاهرة التقى هؤلاء الجواسيس ببعثة تجسس يهودية ثانية كانت تضم ابراهام دي بيا ويوسف لاميجو، وكانت تحمل تعليمات جديدة من حكومة البرتغال، وانضمت البعثتان في بعثة واحدة اتجهت إلى هرمز ثم إلى زيلع والحبشة ثم عادت إلى مصر ومنها إلى البرتغال.

وحصلت هذه البعثة على خرائط عربية عن المحيط الهندي وبحر الصين ومعلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية في هذا المحيط ومعلومات كاملة عن التجارة الشرقية. ووضعت هذه الخرائط والمعلومات أمام السلطان البرتغالي في لشبونة. وكان لذلك اثر كبير في تقدير الموقف والمضي قدما في إيفاد البعوث الكشفية الجغرافية للوصول بحراً إلى الهند.

☒ برثلميو دياز Bartholomu Diaz

عاود البرتغاليون نشاطهم في عام ١٤٨٧ عندما أرسال الملك يوحنا الثاني بعثة كشفية يرأسها الملاح البرتغالي الكبير برثلميو دياز، وكان هدفه ارتياد بقية الساحل الافريقي بالدوران حول القارة بقصد الوصول إلى الهند عن طريق البحر مباشرة وذلك بدلاً من الطريق القديم طريق البحر المتوسط ماراً ببلاد الشرق العربي. وقد نجح برثلميو دياز في ارتياد الساحل نحو الجنوب حتى وصل إلى خليج ألجوا Algoa في جو عاصف وسماه خليج الزوابع أو رأس الزوابع Gabo tormentos، ثم عاد في عام ١٤٨٨ إلى البرتغال مبشراً بأن الطريق إلى الهند أصبح واضح المعالم، ولذلك رأى ملك البرتغال أن يغير اسم الخليج وسماه (رأس الرجاء الصالح) Gabo da boa esperanca لأنه بعث الرجاء في كشف الطريق البحري المباشر إلى الهند. وعند هذا الحدث توقفت جهود البرتغاليين لمدة عشر سنوات حدثت خلالها الكشوف الإسبانية العظيمة لينتهي بذلك الدور الاول حسب قول بعض المؤرخين.

وفي الوقت الذي نجح فيه البرتغاليون في مغامراتهم الكشفية كانت إسبانيا تسعى من جانبها إلى الوصول الى الهند عن طريق الاتجاه غرباً، وعهد بذلك الى الرحالة الجنوي كريستوف كولمبس في عام ١٤٩٢ وسرعان ما نشب الصراع بين إسبانيا والبرتغال إذ كانت كل منهما تسعى إلى تأمين حقها في الأراضي الجديدة التي كشفتها والطرق الملاحية التي اهتدت إليها والثروات التي توقعت أن تهبط عليها.

وعندما اشتد النزاع بين الدولتين اتجها إلى تحكيم البابا إسكندر السادس الإسباني الأصل وقررا قبول حكمه. وبعد نظر البابا في الامر أصدر حكمه باقتسام الدولتين لكل الأراضي والجزر التي تم كشفها بالفعل والتي سوف تكتشف بعد ذلك في الغرب وباتجاه الهند أو تجاه المحيطات. وكان هذا الحكم - الذي عارضته شعوب فرنسا وهولندا وانجلترا باعتباره اعتداء صارخاً على حرية البشر- البابوي أساساً للمعاهدة التي عقدت بين الدولتين وهي معاهدة تورد سيلاس Tordesillas عام ١٤٩٤.

الدور الثاني ١٤٧٩-١٥١٥

بعد عشر سنوات من معاودة النشاط البرتغالي في عام ١٤٩٧ فيما يطلق عليه عدد من المؤرخين الدور الثاني مضى البرتغاليون في مغامراتهم في الشرق لاحتكار منتجاته ومحاولة ضرب القوة الاسلامية بحرمانها من نموها وتطورها الاقتصادي، واعدت حملة بقيادة فاسكو دي جاما لاستئناف الحركة الكشفية.

☒ فاسكو دي جاما Vasco De Gama

بعد كشف الإسبان للعالم الجديد ظن الأوروبيون أن الإسبان قد كشفوا طريقاً إلى الهند اقصر وأسهل من طريق جنوب أفريقيا، ولذلك تحرك ملك البرتغال عمانويل الثاني (١٤٩٥-١٥٢١) أو السعيد Manual the for وأمر فاسكو دي جاما بقيادة حملة بحرية وذهب عمانويل بنفسه إلى ميناء ريستلو Restlo في لشبونة وحوله أفراد حاشيته ليكونوا في وداع فاسكو دي جاما الذي أبحر في يوم ٨ يوليو ١٤٩٧ بين هتاف الجماهير وصياحهم لتكملة ارتياد الطريق الجنوبي الأفريقي ومواصلة رحلته إلى الهند. وكان أسطوله يتألف من أربع سفن أطلقت عليه أسماء قديسين وعليه مائة وخمسون فرداً.

نجح فاسكو دي جاما في تحقيق هذا الهدف من الرحلة، وتمكن من إتمام الدوران حول جنوبي أفريقيا ووصل إلى ساحلها الشرقي نحو موزمبيق Mozambique في مارس ١٤٩٨ ثم إلى ممبسة Mombasa وغيرهما من ثغور شاطئ أفريقيا الشرق حيث كانت تسكنها جماعات من تجار العرلاب، ولذلك أخذوا ينقمون على الأوروبيين تدخلهم في تلك الجهات ورفضوا أن يرشدوا فاسكو دي جاما إلى الطريق الموصل إلى الهند، لكنه وجد في ماليندي Malinde من يرشده ويساعده وهو البحار العربي أحمد بن ماجد.

ولد احمد ابن ماجد في رأس الخيمة بالخليج العربي في اسرة كلها من الربانية وله خبرة مبيرة بأمور الملاحة وطرقها وأسرارها وله مؤلفات في فنون الملاحة، وكان يستخدم إسطولا عربيا من المعدن والآت مربعة وأخرى مثلثة من الخشب ويسجل بها أرصاده ومعه خرائط عربية ممتازة موضحة عليها خطوط الطول والعرض بطريقة سهلة.

قبل أحمد بن ماجد أن يساعد فاسكو دي جاما ويهديه إلى مدينة كاليكوت (قاليقوط) Calicut مركز التجارة الهندية والتي تقع على الشاطئ الغربي للهند. وقد أدرك فاسكو دي جاما أنه أمام ربان عظيم فترك لابن ماجد سفينة القيادة ليتولى هو قيادتها من ماليندي حتى وصل إلى ثغر كاليكوت في يوم ١٨ مايو ١٤٩٨.

وهناك اتصل فاسكو دي جاما بالأمراء، ولم يحسن سلطانها الملقب زامورين Zamorin أي سيد البحار استقباله في البداية لأن التجار العرب كانوا قد أفهموا أن البرتغاليين ليسوا سولا لصوص بحر ولا عمل لهم إلا النهب والسلب، ولكن الزامورين عاد وقرب فاسكو دي جاما إليه وعقد معاهدة تجارية. وفي سبتمبر ١٤٩٩ عاد فاسكو دي جاما إلى بلاده وسفنه محملة بالتوابل والأحجار الكريمة الثمينة والمنتجات الشرقية،، وبذلك كان فاسكو دي جاما أول من استخدم طريق رأس الرجاء الصالح كطريق بحري مباشر إلى الهند.

وهكذا كان فاسكو دي جاما أول من فتح باب الاستعمار في الشرق، وقد هون لملك البرتغال أمر العرب وأظهر له أن كفيل بالتغلب عليهم واستئصال شأفتهم من جميع البحار وتأسيس دولة برتغالية عظيمة في الشرق لأن وسائل دفاعهم ضعيفة؛ وبذلك فإن هذا الكشف كان أكبر ضربة اقتصادية وجهت للعالم الإسلامي وخصوصاً في مصر، إذ انتقل المركز التجاري العالمي من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الاطلسي. وكان لهذا الانتقال أسوأ الأثر في تجارة الدول المطلة على البحر المتوسط وبخاصة البندقية ومصر وكانت مصر المملوكية قد بلغت في العصور الوسطى حتى بداية القرن السادس عشر درجة كبيرة من الثراء وكانت خزائن حكامها تفيض بأموال التجار الإيطاليين من البندقية وجنوة.

أما في الهند فقد عند البرتغاليون إلى امتلاك أجزاء من الساحل ووضعوا فيها بعض قواتهم البحرية والبرية ليخضعوا أمراء المسلمين في الهند ويجبروهم على توقيع معاهدات تلزمهم بقصر التجارة على البرتغاليين.

واستصرخ أمراء وسلاطين الهند المسلمون حكام البلاد العربية الإسلامية ليمدوا لهم يد المساعدة في تلك الحرب المقدسة حيث استنجد حاكم كاليكوت بسلطان مصر المملوكي، ووجد ذلك صدى لدى السلطان قنصره الغوري الذي شعر بخطورة الموقف. وقد اتفق المصريون والبنادقة معاً ومع الزامورين على إعداد العدة لمقاومة البرتغاليين والقضاء على هذا الخطر الداهم في بحار الشرق وأعدوا بالفعل أسطولا كبيراً اشتبك مع أسطول البرتغال في موقعة بحرية عظيمة. تمكن الأسطول البرتغالي بقيادة ألميدا من أن يهزم الأسطول المصري في معركة بحرية بالقرب من جزيرة ديو Diu أمام بومباي عام ١٥٠٩. ومن ذلك الوقت وقعت التجارة الهندية في أيديهم وقضوا على البقية الباقية من نفوذ البنادقة ومضوا في تنفيذ سياستهم التوسعية في الاستيلاء على مداخل الخليج العربي والبحر الأحمر لتوطيد أركان إمبراطوريتهم في الشرق.

☒ البوكيوك والامبراطورية

واصل البرتغاليون تدعيم تفوقهم البحري وسيطرتهم التجارية في البحار الشرقية والمضي في تنفيذ سياستهم التوسعية فكلفوا أحد كبار قوادهم البحريين وهو الفرنسو البوكيرك Al buquerquc الذي كان معروفاً بنزعة الاستعمارية وتعصبه ضد المسلمين ليواصل تحقيق الأهداف الاستعمارية الجديدة، فاستولى البوكيوك على جزيرة سوقطرة Sokotra عند مدخل البحر الأحمر وعلى جوا Goa عام ١٥١٠ حيث أقام أول محطة ثانية للبرتغال ثم استولى على ملقا قرب سنغافورة عام ١٥١١، واستطاع بعد ذلك الاستيلاء على هرمز؛ وبذلك سيطرت البرتغال على التجارة القادمة من الهند إلى فارس وإلى بلاد الجزيرة والشام. ولكنه توفي عام ١٥١٥ قبل أن يتمكن من الاستيلاء على عدن التي لم يستطع خلفاؤه الاستيلاء عليها.

الدور الثالث ١٥١٥-١٥٨٣

يمثل عام ١٥١٥ بداية الدور الثالث والذي تمكن خلاله البرتغاليون من السيطرة على سواحل أفريقيا وساحل الهند الغربي.

ولما كان المشرق العربي قد وقع منذ عام ١٥١٦ في حوزة الاتراك العثمانيين فقد وقع عبء الكفاح ضد الإقدام البرتغالي من البحار الشرقية على عاتق الحكومة العثمانية إلا أنها فشلت في انتزاع التفوق البحري من البرتغاليين، ومضى الأخيرون في توسعهم متخذين الشرق الأقصى مجالاً للتقدم فاستولى على الملايو، وانفتح أمامهم إلى سيام وجاوه، وبلغ نشاطهم ساحل الصين. وهكذا تطورت جهود البرتغاليين من فكرة كشف الطريق البحري المباشر إلى الهند إلى احتلال الاراضي وتكوين إمبراطورية في أجزاء أفريقيا وآسيا.

وبعد وفاة ملك البرتغال دون وريث دب الضعف في الامبراطورية البرتغالية حيث تولى الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا حكم البرتغال عام ١٥٨٠، واستمرت الدولتان تحت تاج واحد حتى عام ١٦٤٠، ولم يهتم ملك إسبانيا بالمناطق التي خضعت قبل للسيطرة البرتغالية ونتج عن ذلك مهاجمة الهولنديين للمراكز البرتغالية وحلوا محلهم في الشرق.

استعمار البرازيل

نزل الملاح كبرال في عام ١٥٠٠ بساحل البرازيل بطريق الصدفة أثناء توجهه إلى الهند حيث دفعته الرياح إلى الغرب، ولما كان البرتغاليون قد وجهوا جهودهم إلى الشرق فلم يهتموا بالبرازيل، ولكنهم عاودوا الاهتمام باستعمارها. بعد أن أدركوا أن آمالهم في احتكار التجارة الشرقية لم تتحقق وأن إسبانيا قد حصلت على الكثير من الذهب والفضة نتيجة سياستها الاستعمارية في أمريكا.

بدأت البرتغال تتوغل في البرازيل منذ عام ١٥٢٥ وتعمل على استغلالها واتبعت في ذلك نظام الإقطاع فأقطعت المغامرين من البرتغاليين إقطاعات من أرض البرازيل. وكان كل إقطاع يركز على قاعدة الساحل ثم يتوغل صاحب الإقطاع نحو الداخل مختلطاً بالأهالي العاملين. وقد طبقت البرتغال فيها سياسة اقتصادية معينة ونشرت بها لغتها ونظمها، كما نشرت بها المسيحية على المذهب الكاثوليكي.

وأرهق البرتغاليون الأهالي بالعمل في مزارعهم على غير المألوف، وتطلب التوسع في زراعة السكر زيادة في الأيدي العاملة فوق طاقة الوكنيين فاضطر اصحاب المزارع إلى جلب العبيد من غربي أفريقيا على نحو ما فعل الإسبان في استغلال مزارعهم الواسعة في مستعمراتهم الأمريكية؛ وبذلك بدأت حركة نقل آلاف العبيد من وطنهم إلى امريكا للعمل في مزارعها ومناجمها أرقاء لأصحاب الأراضي، وبفضل سواعد هؤلاء السود عمرت الأراضي وازداد الإنتاج وبنيت المدن وازدهرت الحياة.

وفي نهاية القرن السادس عشر كان بالبرازيل حوالي ٢٥.٥٥٥ من العناصر البيضاء أو المختلفة الأرقاء المسخرين في زراعة الأرض وغيرها من الأعمال اليدوية.

نظام الاستعمار البرتغالي

تنوعت سياسة التوسع البرتغالي بتنوع أهدافها واتجاهاتها، وقد انحصر التوسع البرتغالي في ميدانين:

١- العالم الجديد.
٢- الميدان الشرقي في أفريقيا وآسيا.

ففي الميدان الأول كانت البرازيل من نصيب البرتغال، وقد شجعت البرتغاليين على الاستيطان وتحقيق الاستغلال وتدعيم الاستعمار حتى أصبح البرتغاليون الذين استوطوا البرازيل يشعرون أنها بلادهم لهم فيها مصالح ثانية يدافعون عنها، ولذلك استطاعت البرازيل أن تدافع عن نفسها كمستعمرة برتغالية في أول الأمر حتى اذا استكملت مقوماتها استقلت عن البرتغال في القرن التاسع عشر، وعندئذ تطلعت هولندا إلى محاولة النزول بالبرازيل والتوغل فيها.

واتجه التوسع البرتغالي في الميدان التالي إلى احتلال المراكز التجارية والسعي لاحتكار التجارة الشرقية دون الاهتمام بزراعة الأراضي واستغلال المناجم وإيجاد النظم الضرائبية حيث تطلعت البرتغال إلى احتكار التجارة والحصول على أرباحها؛ وبذلك فإن الاستعمار البرتغالي في الشرق لم يكن قائماً على قواعد وأساليب استعمارية من حيث العناية بالتنظيم السياسي والحكومي ونظم الاستيطان والاستقرار والتعمير، ولهذا لم تستطع الإمبراطورية البرتغالية الشرقية أن تصمد في معارك التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية بل سرعان ما انهارت وحلت محلها إمبراطوريات أوروبية أخرى. ويرجع ذلك أيضاً إلى أنها لم تكن متماسكة الأجزاء خاضعة لحكم واحد وإنما كانت لا تعدو أن تكون شريطاً ساحلياً ممتداً في أفريقيا وآسيا وجزائر متناثرة في البحار الشرقية.

وعلى الرغم من سيطرة البرتغال على الطريق البحري الجديد وتحقيق التفوق البحري في المياه الشرقية في مدى قرن ونصف إلا أنها عجزت عن احتكار تجارة الشرق في أيديها احتكاراً تاماً، فقد كان التجار العرب يجدون مجالات للإفلات من الحصار البرتغالي فيحملون في سفنهم الخفيفة ما استطاعوا حمله من المنتجات الشرقية وينفذ١ون بها إلى البحر الاحمر أو الخليج العربي وينقلونها إلى مصر أو عبر فارس (إيران) والعراق إلى موانئ الشام حيث يبيعونها للتجار البنادقة، وبحلول عام ١٥٤٠ كانت التجارة الشرقية ترد بكميات وفيرة إلى الإسكندرية وحلب حيث ينقلها تجار البندقية وغيرهم إلى موانئ إيطاليا وفرنسا.

وفي عام ١٥٧٨ سنحت الفرصة لفيليب الثاني ملك إسبانيا- الذي كان يعمل على بسط سيادة أسرته في أوروبا- لضم البرتغال إلى أملاكه؟، وبعد موت ملكها هنري الكاردينال طالب بعرشها بحق الوراثة وارسل إليها جيشاً بقيادة دوق ألفا فاستولى عليها بمساعدة أسطول كبير من الساحل؛ وبذلك اصبحت شبه جزيرة أيبيريا تحت سلطانه.

وهكذا استطاعت إسبانيا بسط نفوذها على المستعمرات البرتغالية في امريكا الجنوبية وأفريقيا وجزائر الهند الشرقية واستغلالها في وقت كانت خزائن إسبانيا خاوية.

وقد أدى سقوط البرتغال وفقدها لإمبراطوريتيها في الشرق إلى الانحلال ووقعت تحكم إسبانيا حين آل عرش البرتغال من بعد وفاة الملك سبستيان Sebastian آخر ملوك البرتغال في القرن السادس عشر إلى فيليب الثاني ملك إسبانيا في عام ١٥٨٠. واستمرت البرتغال تحت سيطرة إسبانيا حتى استقلالها عام ١٦٤٠ ولكن بعد أن دب الضعف في كيان الامبراطورية البرتغالية وأصبحت مصالح البرتغال نهباً للدول الأخرى بسبب إهمال ملم إسبانيا لها، ففي الوقت الذي كانت البرتغال فيه تجاهد من اجل استعادة كيانها والفوز باستقلالها كانت الدول الأوروبية الأخرى وهي هولندا وانكلترا ثم فرنسا قد نزلت ميدان التنافس الاستعماري ووجدت في أملاك البرتغال مجالاً خصباً للتوسع.

أسباب انهيار الإمبراطورية البرتغالية في الشرق

١- تسبب نظام الحكم البرتغالي في انهيار الإمبراطورية البرتغالية، فقد انصب اهتمام البرتغاليين على الاستحواذ على تجارة التوابل واحتكارها في ممتلكاتهم ورأو أنهم ليسوا في حاجة الى تدعيم حكمهم إلا عن طريق إنشاء محطات مسلحة تستطيع أن تمون أساطيلهم وتكون بمثابة قواعد ثابتة لمراقبة منافذ البحار الهندية واتخاذ هذه المحطات مراكز مهمة لتجارة التوابل فأقاموا في الشرق مراكز استعمارية على ساحل الملايارحيث تركوا أكثر الحكام الوطنيين في مراكزهم وحصلوا منهم الجزية ومنعوهم من التجارة، واكتفوا بإقامة الحصون والقلاع وبعض محطات مسلحة في سومطرة ومسقط وعدن وهرمز وملقا أي في المحطات الرئيسية الواقعة على منافذ البحار ومسالكها.
٢- أقانم البرتغاليون في الجهات النائية من الشرق الأقصى نظاماً للحكم تسبب في انهيار إمبراطوريتيهم ويرجع ذلك إلى تجمع السلطة كلها في شخص الملك المقيم في جوا Goa والذي تمتع بسلطة مطلقة ولم يكن مسؤولاً إلا أمام الملك البرتغالي نفسه. ولما كانت مدة هذا الحاكم في منصبه قصيرة لا تتعدى ثلاث سنوات فكان يشتط في معاملة الأهالي ويبتز الأموال ليكون لنفسه ثروة. وفي الوقت نفسه كان لابد من فرض الضرائب للإنفاق على شؤون الإدارة التي صارت لاتساعها المستمر في حاجة متزايدة إلى المال هذا فضلاً عن إقدام البرتغاليين على نشر المسيحية وانشأوا في جوا محاكم التفتيش عام ١٥٦٠.

٣- لم يستطع البرتغاليون أن يقلدوا البنادقة في إيجاد طبقة من التجار الصغار للعمل في ميدان التجارة وإنما تركوا هذه المهمة للهولنديين الذين نافسوا البرتغاليين وكانوا خاضعين لحكم الإسبان فأتاح لهم ذلك فرصة توزيع تجارة البرتغال في أوروبا وأصبحت لشبونة تعج بالتجارة الهولنديين الذين كانوا يقومون بدور الوسيط بين البرتغال وباقي دول أوروبا. فأصبحت أمستردام وأنتورب مركزين رئيسيين لتوزيع سلع الشرق الأقصى وأفريقيا. وعندما استولت إسبانيا على البرتغال عام ١٥٨٠، وكان الهولنديون في ثورة على الحكم الإسباني أغلق فيليب ملك إسبانيا موانئ البرتغال في وجههم مما دعا الهولنديين إلى إرسال سفنهم إلى غرب أفريقيا ليتعاملوا مباشرة مع مراكز التجارة الأصلية في أفريقيا والشرق، واستطاعت هولندا أن تنتزع من البرتغاليين محطاتهم التجارية وأن تأخذ سفنهم المشحونة بالسلع والبضائع عصباً وأن تقوض صرح الإمبراطورية البرتغالية في الشرق الأقصى حيث مكنت هولندا لسلطانها وظلت آثارها الاستعمارية في جزر الهند الشرقية باقية إلى عهد قريب.

٤- لم يستطع البرتغال لقلة عدد سكانها وبسبب صغر مساحتها أن تقدم عدداً كافياً من الرجال للدفاع عن مثل هذه الإمبراطورية العظيمة، لذلك لم يتمتع البرتغاليون بهذا الملك العريض وتلك الإمبراطورية الشامخة أكثر من ٧٥ عاماً عندما حل محلهم الهولنديون منذ نهاية القرن السادس عشر ثم الانكليز والفرنسيون.

٥- لم يستفد البرتغال كثيراً من إمبراطوريتها، فمع أن لشبونة العاصمة كانت مزدهرة في القرن السادس عشر لأنها كانت مركز التجارة فإن داخل البلاد كان يشكو من الاهمال والتأخر حيث أهملت الزراعة وكثرت الأراضي البور بسبب هجرة الزراع واشتراكهم في الحملات والرحلات والانخراط في سلك الجندية، واضطر البرتغاليون إلى الاستعانة بالرقيق، وانتشر البؤس داخل البلاد. وعلى ذلك كانت عظمة البرتغال الخلابة تخفي وراءها في الحقيقة بؤساً وتعاسة في داخل البلاد.

ثالثاً: الكشوف الإسبانية

شاركت إسبانيا البرتغال في الكشف الجغرافي متأثراً بنفس المؤثراتّ التيس دفعت بالبرتغال إلى هذا الميدان وهي:

١- الرغبة في الاتصال بدول الشرق بطريق بحري مباشر.
٢- الاستيلاء على التجارة الشرقية.
٣- التحرر من سيطرة البندقية الاحتكارية.

☒ رحلات كريستوفر كولمبس

بدأت الكشوف الإسبانية بمهمة كريستوفر كولمبسChristopher Columbus (١٤٤٦-١٥٠٦) الذي ولد في مدينة جنوة عام ١٤٤٦ وكان مغرماً بالملاحة منذ صغره، وأخذ يقرأ آراء العلماء والفلاسفة عن الارض والبحار والمحطات، وكان يقضي أوقات فراغه في دراسة الخرائط والرسوم والعمليات الحسابية حتى توصل إلى فكرة جديدة جزئية عن الوصول إلى شرق آسيا وبلاد الهند ليس عن طريق السير شرقاً أو جنوباً، وإنما بالسير غرباً عبر المحيط الأطلسي غير مكترث بالخرفات السائدة عن المحيط الأطلسي وما فيه من جن وشياطين ونيران وأن نهاية سطح الارض من الغرب حيث كانت الفكرة السائدة لدى الكثيرين وقتئذ أن الارض منبسطة وليست كروية الشكل كما كان يعتقد.

ولما كان كريستوفر كولمبس شديد الإيمان بفكرته عظيم الثقة بنفسه فإنه لم يعبأ بتأنيبهم أو ضحكهم عليه. وزاد من ثقته بنفسه أنه درس الملاحة عملياً فقد اشترك كثيراً في البعوث الكشفية البرتغالية وقام بعدة رحلات بحرية في البحر المتوسط.

وعندما اتجه إلى تنفيذ فإنه كان في حاجة إلى المال والرجال ولما لم يكن لديه شيء من ذلك فلم يجد سبيلاً أمامه إلا عرض فكرته على ملك البرتغال طالباً معونته، ولكنه رفض مساعدته، ومن ثم فقد لجأ إلى جنوة والبندقية ولكنهما رفضتا أيضاً، كما أرسل أخاه في عام ١٤٨٥ إلى هنري السابع ملك انكلترا ولكنه تردد في تنفيذ المشروع. وفي أثناء ذلك عرض كولمبس مشروعه على ملك إسبانيا فرديناند وإيزابيلا فقبلا مساعدته رغم إفصاح رجال الكنيسة وكبار رجال الدولة لها برفض هذا المشروع، وعقدا معه معاهدة في سانت فيه 'Santa Fe بتاريخ١٧ أبريل ١٤٩٢. وهكذا حظي كولمبس بموافقتهما على الإبحار إلى الهند عن طريق الملاحة في المحيط الأطلنطي غرباً.

خرج كولمبس في أول رحلة له في ٣ أغسطس ١٤٩٢ من ميناء بالوس Palos قاصداً شرق آسيا والهند بالسير نحو الغرب حيث أقلع بثلاث سفن محملة بالزاد والمؤن والرجال وهي (سانتا ماريا، بنتا، نينا) إلى المحيط، وظل يبحر غرباً فمر بجزائر كناريا وكانت آخر مدى وصل إليه الأوروبيون آنذال وغادرها في ٦ سبتمبر متجهاً نحو الغرب، وبعد مضي أسبوعين دون ظهور أي دليل على الاقتراب من البر فقد تملك اليأس نفوس البحارة والملاحين وكادوا يثورون عليه ويرغمونه على العودة إلى بلادهم، ولكنه تمكن من التغلب عليهم وتهدئة ثورتهم، ونجح في النهاية من الوصول إلى البر، ففي ١٢ أكتوبر نزل كولمبس ورفاقه في جزيرة صغيرة ظنوها إحدى جزر شرق آسيا ولكنها كانت إحدى جزر البهاما Bahama ورفعوا عليها العلم الاسباني وأعلنوا ضمها لإسبانيا وأطلقوا عليها اسم سان سلفادور San Salvador، كما اكتشف جزائر الأنتيل الصغرى وجزائر الأنتيل الكبرى. وبعد ثلاثة أشهر من التجول فيها عاد إلى إسبانيا في مارس ١٤٩٣ دون أن يدرك أن هذه الجزر ملحقة بقارة كبيرة تقع بين أوروبا وشرق آسيا. وقد أحسن الملك والملكة استقباله ورفعاه إلى منصب النبلاء.

وفي رحلته الثانية في ٢٥ سبتمبر ١٤٩٣ وصل كولمبس إلى بورتوركو وجزر فرجين وجامايكا، وكان ينوي خلال هذه المرحلة استعمار الأراضي الجديدة ومشر المسيحية بين السكان الأصليين الذين سماهم كولمبس بالهنود

ورحلته الثالثة في ٣٠ مايو ١٤٩٨ اكتشف كولمبس ترينداد وأبصر شاطئ أمريكا الجنوبية، ولكن حظه كان سيئاً مع الإسبان فظهر منهم الحاقدون والوشاة المقربون إلى الحكام الإسبان الذين أظهروه بمظهر الرجل الأفاق الذي أضاع أموال الدولة رحلات لم تكن ذات فائدة للدولة فيما عدا استرقاق العبيد الذين كانوا يستخدمون في تلك الممتلكات الجديدة، ولم تحصل إسبانيا على ما كان منتظراً من الذهب الكثير، بل أن ما كسبته حتى ذلك الوقت لم يتناسب مع ما كان يؤمله الإسبان من توابل الشرق، وقيل أن ذلك تم لسوء إدارته لإحدى مستعمراته (سبا نيولا) وهكذا أعادوه إلى إسبانيا مكبلاً بالأغلال ذليلاً عام ١٥٠٠ ولم ينقذه من هذا الذل وتلك المعاملة القاسية إلا الملكة إيزابيلا التي كانت تعطف عليه.

وفي عام ١٥٠٢ قام كولمبس برحلته الأخيرة والتي وصل فيها إلى شواطئ أمريكا الوسطى بالقرب من بنما ثم سار بذائها حتى وصل إلى مصب نهر الأورينوكو، وعاد من رحلته ليقضي باقي أيامه في إسبانيا منزوياً متألماً ومات في ٢٠ مايو ١٥٠٦ فقيراً ويكاد يكون مغموراً وهو لا يعلم أنه كشف عالماً جديداً، بل كان على اعتقاده أنه وصل إلى شرق آسيا وأنه واصل السير غرباً فإنه سيبلغ نهر الكانج بالهند وأن الجزر التي نزل إليها هي جزر الهند بلغها عن طريق الغرب، ومن ثم قد سميت جزر الهند الغربية، ولذلك فلم يطلق اسمه على القارة الجديدة وإنما أطلق عليها أمريكا نسبة إلى الفلورنسي أمريجو فيزبو تشي Amerigo Vespucci الذي انغمس في أعمال الكشوف الجغرافية وكشف فنزويلا عام ١٤٩٩. وقد أوفده ملك البرتغال عام ١٥١٠ في مهمة كشفية جغرافية ولدراسة المناطق التي تقع شرقي خط التقسيم.

وقد وصل إلى الشاطئ الشرقي لأمريكا الجنوبية، ووضع رسالة اثبت فيها أن الأقاليم التي اكتشفت ليست الهند أو الصين أو اليابان وإنما هي اقطار جديدة لا علاقة لها على الإطلاق بهذه الأقاليم، ومن ثم أطلق اسمه على أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية.

وتركت رحلات كولمبس آثاراً عديداً منها أن الملوك الكاثوليك عملوا على تثبيت ملكيتهم للأراضي الجديدة وخصوصا عندما نشط البرتغاليون من كشوفهم؛ وبذلك فإنه يمكن القول أن الدفاع وراء هذه الكشوف لم يكن هو الرغبة في الحصول على التوابل والذهب، بل كان هدفاً استعمارياً، كما أنه لا يخفى ايضاً الدوافع الدينية حيث كانت هناك مشروعات تبشيرية لبابا الفاتيكان وكذلك الفرنسيسكان، وكانت تمتد إلى العالم باسره. وكان الهدف أيضاً شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق، كما أن رحلات كولمبس قد فتحت الطريق لرحلات الافراد والمغامرين واستطاع الرحالة الجدد بين سنتي (١٤٩٩-١٥٠٨) أن يصلوا إلى جزر بهاما ثم إلى مصب نهر الأمزون وبرزخ بنما وحول كوبا، وتلا ذلك توطيد حكم الإسبان في امريكا الوسطى والجنوبية وفي مقدمة هؤلاء المغامرين بالبوا Ballboa الذي عبر برزخ بنما حيث شاهد المحيط الهادي وأعلن امتلاكه لذاك الجهات باسم ملك إسبانيا.

☒ رحلات ماجلان Magellan

وقعت أهم حوادث هذه الفترة في عهد الإمبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا وحفيد إيزابيلا وهي الرحلة حول العلم وفتوحات الإسبان في المكسيك وبيرو في أمريكا الوسطى والجنوبية.

عرض فرناندو ماجلانس الشهير بماجلان الملاح البرتغالي الأصل على الإمبراطور شارل الخامس مشروعه بإمكان الوصول إلبى جزائر البهار بالسير غرباً من الأراضي المستكشفة حديثاً. وقد رحب شارل بهذا المشروع فتعهد بأن يجهز خمس سفن صغيرة على متنها ٢٣٤ رجلاً وأن يمده بما يحتاجه من مؤن وذخيرة وأسلحة عامين كاملين.

خلاج ماجلان في سبتمبر ١٥١٩ إلى القارة الجديدة من ميناء سان لوكار San Lucar باحثاً عن ممر ينفذ منه إلى بحار الشرق ولما لم يجد بغيته سار بمحذاء ساحل أمريكا الجنوبية ووصل إلى البرازيل عند ريو دي جانيرو ثم إلى مصب نهر لابلاتا حول أمريكا الجنوبية ودخل في نوفمبر ١٥٢٠ في المحيط الذي سماه تفاؤلاً بالهادي Pacifique لأنه وجده خالياً من الزوابع التي تكثر في المحيط الأطلسي. وواصل سيره في هذا المحيط نحواً من ثلاثة أشهر لاقى فيها الكثير من الاهوال والشدائد.

وفي ١٦ مارس ١٥٢٠ وصل ماجلان إلى الجزر التي عرفت فيما بعد باسم جزائر فيلبين - نسبة إلى فيليب ابن الإمبراطور شارل الخامس - والتي كان البرتغاليون قد وصلوا إليها عن طريق الشرق، وكان مع ماجلان وقتئذ ثلاث سفن فقط و١٠٨ بحارة. وفي احدى هذه الجزر مات ماجلان يوم ٢٧ أبريل ١٥٢١ أثناء قتاله مع أهلها، وخلفه في قيادة هذه الرحلة جون سباستيان دل كانو John Sebastian Del Cano.

وتركت رحلة ماجلان أثراً مهما فقد أثبتت هذه الرحلة بشكل قاطع كروية الارض كما غيرت أفكار العصور الوسطى عن حجم الأرض وشكلها، بل برهنت على أن حجم الأرض اكبر بكثير مما كان يعتقد كولمبس نفسه فقد تأكد وجود قارة عظيمة الاتساع تقع بين أوروبا وآسيا وكذلك وجود محيط مترامي الأطراف لم يكن معروفاً من قبل ولم يبق بعد ذلك غير معروف سوى الأقطار القطبية وأستراليا.